كلية المجتمع في قطر

قسم الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

خريف 2018 / 2019

الحضـــــــارة..

قراءة في عوامل الازدهار وأسباب الانهيار

دكتور

نادر محمد إسماعيل

﴿ الحضـارة ﴾

يرى المؤرخ الفرنسي لوسيان فيفر (Lucien Febvre)[1]، فيما نقله عنه موريس كروزيه (Maurice Crouzet)[2] أن كلمة " حضارة " دخلت مصطلح العلوم متأخرة ، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، وأن مدلولها الكامل لم يتضح على الوجه الأمثل ولم يستقر مشتمله الأوفى إلا بعد ذلك بكثير ، حيث عُني بهذا المصطلح الجديد على لسان فلاسفة القرن الثامن عشر العقليين وغيرهم مجموعة من الخطط والنظم القمينة بإشاعة النظام والسلام والسعادة ، وبتطوير البشرية الفكري ، وبتأمين انتصار الأنوار [3] .

والمتأمل لتاريخ الأدب العربي يدرك جيداً أن مصطلح " حضارة " كان مصطلحاً دارجاً ومستخدما على ألسنة الشعراء ، فها هو جرير (ت 114 هـ / 732 م) [4] في معرض تفريقه بين سكان البادية وأهل الحضر يقول [5] : -

أعرابكم عارٌ على حُضَّاركم والحاضرون خزاية الأعراب

وإذا كان جرير قد تعرض للحضارة تلميحاً ، فقد ذكرها غيره تصريحاً ، حيث يقول آخر[6] :

---

(1) لوسيان فيفر (Lucien Febvre) (1878 -1956م) مؤرخ فرنسي شهير .

(2) موريس كروزيه (Maurice Crouzet) كان مفتش المعارف العامة بفرنسا ،وأشرف على موسوعة "تاريخ الحضارات العام "

(3) تاريخ الحضارات العام : نقله إلى العربية فريد م . داغر ، فؤاد ج . أبو ريحان ، بيروت – باريس ، منشورات عويدات ، ط 2 ، 1986 م ، جـ 1 ، ص 17) .

(4) جرير بن عطية بن الخطفي البصري ، شاعر زمانه ، مدح بشعره يزيد بن معاوية وخلفاء بني أمية ، توفي بعد الفرزدق بشهر ، وكان ذلك على الراجح بعد سنة 110 هـ . (للمزيد انظر : محمد ابن إسحاق النديم ، الفهرست ، بيروت ، دار المعرفة ، د . ت ، ص 225 – 226 . محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط 11 ، 1417 هـ – 1996 م ، جـ 4 ، ص ص 590 – 591) .

(5) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب : تحقيق الدكتور نعمان محمد أمين طه ، القاهرة ، دار المعارف ، ط 2 ، د . ت ، جـ 3 ، ص 629 .

(6) إسماعيل بن حماد الجوهري : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط 4 ، 1990 م ، جـ 2 ، ص ص 632 – 633 .

وَمَن تكن الحضارة أعجبته　　فأي رجال بادية ترانا

إذن فمصطلح " الحضارة " كان معروفاً قبل العصر الحديث بزمن طويل ، ويقيناً أن الذين وظّفوه في أشعارهم كانوا يدركون معناه جيداً ، ومع ذلك فيبدو أن المدلول الأمثل لكلمة " حضارة " قد نضج عند ابن خلدون (7) ، لأن المتأمل لِما أبدعته قريحته في " المقدمة " يدرك جيداً أن الرجل قد وقف على أبعاد ودلالات مهمة لمفهوم " الحضارة " ، ففي إحـدى فصـول المقدمة وعنـوانه (فصل في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة) أخذ ابن خلدون يُنّظِّر للكيفية التي تنتقل بها الدولة من البداوة إلى الحضارة ، حتى قال : " ... والحضارة إنما هي تفنن في الترف ، وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه ، من المطابخ والملابس والفرش والأبنية ، وسائر عوائد المنزل وأحواله " (8) .

ثم يُنهي ابن خلدون تحليله بفهم آخر مهم في موضوع الحضارة ، حيث يقول : " ... وعلى قدر عِظَم الدول يكون شأنها في الحضارة ، إذ أمور الحضارة من توابع الترف ، والترف من توابع الثروة والنعمة ، والثروة والنعمة من توابع المُلك ومقدار ما يستولي عليه أهل الدولة ، فعلى نسبة المُلك يكون ذلك كله ، فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحاً في العمران " (9) . ولا نريد في هذا المقام أن نتوسع في شرح النظرية الخلدونية لدورة الحضارة (10) ، ولكن حسبنا أن نكون قد أسهمنا في مناقشة تاريخية المصطلح ، ونختم هذا الجزء بذلك التعريف الذي تبناه المؤرخ الأمريكي ديورانت(11) ، مع إضافات مهمة يكتمل بها فهم ما نقله ديورانت وابن خلدون .

---

(7) هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي ، مؤسس علم الاجتماع الحديث ، وأب للتاريخ والاقتصاد ، توفي سنة 808هـ/1405م . (للمزيد انظر السيرة الذاتية التي كتبها ابن خلدون لنفسه في كتابه المعروف باسم : التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، 2002م) .

(8) مقدمة ابن خلدون : الإسكندرية ، دار ابن خلدون ، د . ت ، ص 121 .

(9) ابن خلدون : المقدمة ، ص 122 .

(10) يمكن أن تراجع في ذلك ثلاثة فصول مهمة عند ابن خلدون ، وهي : " فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص " ، والثاني بعنوان : " فصل في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخُلق أهلها باختلاف الأطوار " ، والفصل الثالث بعنوان " فصل في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده . (المصدر السابق : ص 119 ، ص 123 ، ص 261) .

(11) ويليام جيمس ديورانت " William James Durant " (1885 – 1981 م) ، فيلسوف ومؤرخ أمريكي .

يرى ديورانت أن الحضارة هي : " نظام اجتماعي ، يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي ، وهي تتألف من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخُلُقية ، ومتابعة العلوم والفنون ، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق ، لأن الإنسان إذا ما أَمِن من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع ، وعوامل الإبداع والإنشاء ، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه ، للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها " (12) .

ولا شك أن ديورانت ومِن قبله ابن خلدون قد كشفا لنا عن معانٍ مهمة لمصطلح الحضارة ، ويمكن أن نضيف إلى ذلك فهمين مهمين لتلك المسألة : -

الأول : أنه ما من أمة أو شعب ، نجح في إقامة نظام اجتماعي – حتى ولو كان بدائياً – قائم على منظومة من العادات والتقاليد التي تعبر عن تراثه ، ونجح في تطويع البيئة – بقدر طاقته – لتلبي حاجاته البسيطة ، إلا وهو شعب لديه مسحة من الحضارة بصورة من الصور ، أو بشكل من الأشكال ، إذ الحضارة تشبه إلى حد كبير سُلمّاً هائلاً متعاقب الدرجات ، ولكل جماعة أو أمة مكان على هذا السُّلّم ، فمنهم من لا يزال في بداية السُّلم ، وقد يرتقي الدرجة التالية وقد لا يرتقي ، فهذا متوقف على مدى توافر عوامل مهمة لهذا التقدم ، ومنهم من وصل إلى نهاية هذا السُّلم ، إلا أنه يوشك أن يفسح المجال لأمة أخرى بعد أن أدى دوره في تاريخ الحضارة ، فالسُّلم – أو الحضارة – يستوعب الجميع ، ولكُلٍّ عليه مكان ومكانة .

الثاني : أن العبرة في الحضارة إنما تتعلق بأمرين مهمين : النفع العام ، وحُسن الاستخدام ، بمعنى أنَّ تَحضُّر دولة من الدول اليوم ينبغي أن لا يُقاس بامتلاكها مفاعلاً ذرياً فحسب ، وإنما بحُسن استخدام ذلك المفاعل استخداماً يعود على البشرية بخير ، وليس التحضُّر أيضاً في أن يمتلك الإنسان سيارة فارهة ، وإنما يكون التحضُّر بكيفية استخدام هذا السيارة ، على الوجه النافع المفيد ، الذي لا يتسبب في إزعاج الآخرين أو إنزال الضر بهم ... وهكذا ، وهذا هو حُسن الاستخدام (13) .

(12) قصة الحضارة : ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ، بيروت ، دار الجيل ،1408 هـ - 1988م ، م 1 ،جـ 1 ، ص 3.

(13) د .سعيد عبد الفتاح عاشور ، د .سعد زغلول عبد الحميد ، د .أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ،الكويت ، ذات السلاسل،ط 2 ، 1406 هـ - 1986 م،ص6.

أما عن النفع العام فينبغي أن لا نحصر الحضارة فقط في عظام المنشآت كالأهرامات ، أو العمائر الشاهقة التي تصعد في الجو كأنها تنطح السحاب ، بل هي تتمثل في صورة أوضح في صِغار الاكتشافات التي تقوم عليها حياة البشر ، لأن العبرة في منجـزات البشر بما ينفع أكبر عدد من الناس ، وييسر لهم أسباب الاستقرار والأمن ، لا بما يبهر العيون ، ويرد الإنسان إلى الشعور بالقلق وانعدام الأمن ، ولذلك فقد يكون رغيف الخبز أنفع للبشرية من الوصول إلى القمر ، فقد أنفقت البشرية ألوفاً من السنين حتى وُفقت إلى صنع رغيف الخبز [14] .

عوامل قيام الحضارة

تحدث مؤرخو الحضارة عن مجموعة من العوامل والشروط اللازمة لقيامها ، والتي يمكن أن تستحث خطاها أو تعوق مسراها ، وربما كان ما ذكره ابن خلدون وديورانت في هذا الموضوع هو خلاصة مهمة ، إلا أنها قد تحتاج إلى إضافات يسيرة تساعدنا في الوقوف على تلك العوامل والشروط ، والتي من أهمها : -

(1) **العوامل الجيولوجية** : يذهب ديورانت إلى أن الحضارة مرحلة تتوسط عصرين من جليد ، فتيار الجليد قد يعاود الأرض في أي وقت فيغمرها من جديد ، بحيث يطمس منشآت الإنسـان بركام من ثلوج وأحجـار ، ويحصـر الحيـاة في نطاق ضيق من سطح هذه الأرض ، وشيطان الزلازل الذي نبني حواضرنا في غفوته ربما تحرك خفية بكتفيه فابتلعنا في جوفه[15] . وتاريخ الحضارة لم ينسَ بعد ما حلَّ بالشعب الذي كان يسكن في كنوسوس بجزيرة كريت ، ذلك الشعب الذي يعادل تاريخه في قدمه – كما يرى البعض – تاريخ مصر ، والذي بلغت حضارته أوج عظمتها حوالي سنة 2500 ق . م ، ثم فجأة نزلت به كارثة قرابة 1400 ق . م ، ومع أننا لا ندري كيف حدثت هذه الكارثة ، إلا أن المحتفرين من علماء الآثار يشهدون به أثر النهب والبعثرة وعلامات الحريق ، ولكن وجدت كذلك آثار لزلزال عنيف مدمر ، فربما إذن

(14) د . حسين مؤنس : الحضارة - دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها – الكويت ، عالم المعرفة ، 1978 م ، ص 9 .

(15) قصة الحضارة : م 1 ، جـ 1 ، ص 3 .

كانت الطبيعة وحدها هي التي دمرت كنوسوس ، وربما أتم الإغريق ما بدأه الزلزال [16] .

(2) **العوامل الجغرافية** : فحرارة الأقطار الاستوائية ، وما يجتاح تلك الأقطار من طفيليات لا تقع تحت الحصر ، لا تهيء للمدنية أسبابها ، فما يسود تلك الأقطار من خمول وأمراض ،وما تُعرف به من نضوج مبكر وانحلال مبكر من شأنه أن يصرف الجهود عن كماليات الحياة التي هي قوام المدنية ، ويستنفدها جميعاً في إشباع الجوع وعملية التناسل ، بحيث لا تذر للإنسان شيئاً من الجهد ينفقه في ميدان الفنون وجمال التفكير ، والمطر كذلك عامل ضروري ، إذ الماء وسيلة الحياة ، بل قد يكون أهم للحياة من ضوء الشمس ، فالعوامل الجغرافية إذن على الرغم من أنها يستحيل أن تخلق المدنية خلقاً ، إلا أنها تستطيع أن تبتسم في وجهها ، وتهيء سبيل ازدهارها [17] .

ورغم أن ديورانت قد نبهنا إلى أهمية العوامل الجغرافية ودورها في قيام الحضارة ، إلا أن فضل السبق في ذلك ينبغي أن ينسب إلى ابن خلدون ، فقد نجح في استنتاج العلاقة بين البيئة والبشر ، وكيف تؤثر البيئة بعواملها المختلفة في حياة الإنسان ، ومن ثمّ في العمران الذي هو غاية الحضارة ، ففي المقدمة الثالثة التي عنْوَن لها ابن خلدون بقوله " في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم " يقول : -

" إن هذا المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه ، لإفراط الحرّ في الجنوب منه ، والبرد في الشمال ، ولمّا كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحرّ والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً ، فالإقليم الرابع أعدل العمران ، والذي حفا فيه من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال ، والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال ، والأول والسابع أبعد بكثير ، فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات ، وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال ، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً ، ... وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم ، فنجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وأقواتهم وصنائعهم ، يتخذون البيوت

---

(16) هـ . ج . ويلز : موجز تاريخ العالم ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة ، 2003 م ، جـ 1 ، ص ص 120 – 121 ، ص 124 .

(17) ديورانت : قصة الحضارة ، م 1 ، جـ 1 ، ص ص 3 – 4 .

المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ، ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين ، ويذهبون في ذلك إلى الغاية " [18] .

ويحدد ابن خلدون تلك الأمم والشعوب التي تعمر هذه الأقاليم ، المهيئة لظهور الحضارة فيها تهيؤاً طبيعياً بقوله : " وهؤلاء أهل المغرب والشام والعراق واليمن ، والحجاز والهند ، والصين واليمن ، وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة والروم واليونانيين ،ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منه في هذه الأقاليم المعتدلة " [19] .

(3) **العوامل الاقتصادية** : والعوامل الاقتصادية هي مهمة أيضاً لقيام الحضارة ، فقد يكون لشعب مؤسسات اقتصادية ، وتشريع خلقي رفيع ، بل قد تزدهر فيه صغريات الفنون ، كما هي الحال مع الهنود الأمريكيين ، ومع ذلك فإنه إن ظل في مرحلة الصيد البدائية ، واعتمد في وجوده على ما عسى أن يصادفه من قنائص فإنه يستحيل أن يتحول من الهمجية إلى المدنية تحولاً تاماً [20] .

وأول صورة تبدت فيها المدنية هي الزراعة ، إذ الإنسان لا يجد لتمدنه فراغاً ومبرراً إلا إذا استقر في مكان يفلح تربته ، ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه مورداً لطعامه ، في هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة ترى الإنسان يبني لنفسه الدور وأماكن العبادة والمدارس ، ويخترع الآلات التي تعينه على الإنتاج، ويستأنس الحيوانات ، ثم يسيطر على نفسه آخر الأمر فيتعلم كيف يعمل في نظامٍ واطّراد ، ويحتفظ بحياته أمداً أطول ، ويزداد قدرة على نقل تراث الإنسانية من علم وأخلاق نقلاً أميناً [21] .

(4) **العوامل الجنسية** : المدنية لا تتوقف على جنس دون جنس ، فقد تظهر في هذه القارة أو تلك ، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذاك ، قد تنهض مدنية في بكين أو دلهي ، في ممفيس أو بابل ، فليس هو الجنس العظيم الذي يصنع المدنية ، بل المدنية العظيمة هي التي تخلق الشعب ، لأن الظروف الاقتصادية والجغرافية تخلق ثقافته ، والثقافة تخلق النمط الذي يصاغ

(18) مقدمة ابن خلدون : ص ص 58 – 59 .
(19) ابن خلدون : المقدمة ، ص 59 .
(20) ديورانت : قصة الحضارة ، م 1 ، جـ 1 ، ص 4 .
(21) المرجع نفسه ، م 1 ، جـ 1 ، ص 5 بتصرف .

عليه ، فالمدنية لا ترتبط بالجنس إلا بمعنى واحد ، وهو أنها تجيء عادة بعد مرحلة يتم فيها التزاوج البطيء بين شتى العناصر ، حتى يتم تكوين شعب متجانس نسبياً [22] .

(5) **العوامل النفسية** : إذ لا بد للعمـران البشـري مـن سياسة ينتظـم بهـا أمـره ، ولابد أن يسـود النـاس نظـام سيـاسي يشعـرون فيه شيئاً فشيئاً بالأمان ، وأنه لا حاجة بهم إلى توقع الموت أو الضريبة عند كل منعطف في طريق حياتهم [23] ، كما أن هذا النظام السياسي بدوره لابد له في أول أمره من الرفق والإحسان ، لأن بهما تنبسط آمال الناس وينتشطون للعمران وأسبابه [24] .

(6) **الأخلاق والدين** : أيضاً يلزم لقيام الحضارة وجود قانون خُلُقي يربط بين الناس ، عن طريق دار العبادة أو المدرسة أو الأسرة ، وربما كان من الضروري كذلك أن يكون بين الناس اتفاق في العقائد الرئيسية ، أو بمعنى آخر دعوة دينية متفق عليها ، لأن الصبغة الدينية تُذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية ، وتفرد الوِجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء ، لأن الوِجهة واحدة والمطلوب متساوٍ عندهم [25] .

(7) **اللغة والتربية** : اختلف الفلاسفة وعلماء النفس حول الصلة بين الفكر واللغة ، وحول إمكانية أن يفكر الإنسان بلا لغة ، حيث ذهب بعضهم إلى أن الإنسان يستطيع أن يفكر من غير أن يكون له لغة محكية يحاور بها أنداده ، في حين يرى البعض الآخر أننا إذا سلمنا جدلاً أن الإنسان يستطيع أن يفكر بلا لغة ، إلا أنه لا يستطيـع أن يجد أحداً يخاطبه بألفاظ تلك اللغـة [26] ، وفي جميع الأحـوال فإن الحضـارة تحتـاج إلى وحدة لغوية إلى حدٍ ما ، لتكون وسيلة بين الناس لتبادل الأفكار .

ولهذا السبب فقد كانت اللغة العربية أحد الأعمدة الرئيسة التي قامت عليها حضارة الإسلام

(22) المرجع نفسه ، م 1 ، جـ 1 ، ص 6 .

(23) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها بتصرف .

(24) ابن خلدون : المقدمة ، ص 212 بتصرف .

(25)المصدر نفسه : ص 111 ، ديورانت : المرجع السابق ، م 1 ، جـ 1 ، 6 بتصرف .

(26) عمر فروخ : الحضارة الإنسانية وقسط العرب فيها ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط 2 ، 1400 هـ - 1980م ، ص 15 .

، فبها كتب الفارسي والحبشي والعربي ، وبها كتب المسلم واليهودي والنصراني والصابئ ، حيث صهرتهم جميعاً في بوتقتها ، فاتخذوها وسيلة عبروا بها عن إنتاجهم الفكري الذي أثروا به الحضارة الإنسانية . وأخيراً فلابد من تربية ، ونعني بها وسيلة تُتّخذ – مهما كانت بدائية – كي تنتقل الثقافة على مر الأجيال ، فلابد أن نورّث للناشئة تراث القبيلة وروحها ، نورِّثهم نفعها ومعارفها ، أخلاقها وتقاليدها ، وعلومها وفنونها [27] .

(8) **ميراث الإنسانية المشترك** : لا توجد حضارة تفردت بالإبداع ، كما لا توجد حضارة قامت على النقل – فقط – ممن سبقها دون أن تضيف إلى ما نقلته جديداً يميزها عن غيرها ، فكل الحضارات نقلت قبل أن تبدع ، ورغم أن الحديث عن جذور الحضارة والمكان الذي بزغ فيه فجرها لا يمكن أن يكون محل اتفاق بين المؤرخين ، إلا أن جمهرة لا بأس بها منهم قد ارتضت الرأي الذي يذهب إلى أن الحضارة قد ظهرت أولاً في مدنيات الشرق الأدنى ، في بلاد الرافدين ومصر القديمة على وجه التحديد ، ولكن ليس معنى ذلك أن بلاد الرافدين ومصر قد أنشأتا الحضارة إنشاءً من العدم ، إذ لابد وأن هناك أشكالاً من المدنية – ولو كانت بسيطة – قد سبقت قيام هاتين الحضارتين ، فنقلت سومر (في بلاد الرافدين) ومصر ما احتاجتا إليه ، ثم أضافتا تلك السمة التي ميزت كلتيهما عمن سبقهما .

ولمّا دارت الحضارة دورتها وبزغ فجرها الجديد في بلاد اليونان احتاج الإغريق مدنية الشرق القديم ، فاقتبسوا منها ما أنار لهم طريقهم [28] ثم أضافوا عليه ما أبدعته قريحتهم ،ولمّا جاء الدور على المسلمين ليقودوا مسيرة الحضارة الإنسانية نقلوا أولاً ممن سبقهم ، من الهنود والفرس واليونان ، ثم أضافوا إليه سمتهم التي ميزتهم عن تلك الحضارات [29]، ولمّا بزغ فجر العلم الحديث في الغرب الأوروبي تتلمذ الأوروبيون على محصول العلم العربي ، والذي عجّل بدخول أوروبا إلى عصر النهضة.

❁ ❁ ❁

(27) ديورانت : قصة الحضارة ، م 1 ، جـ 1 ، ص 7 .

(28) سنتناول هذا الأمر بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، عند الحديث عن جذور الحضارة وامتداداتها.

(29) سنعرض لهذه القضية بالتفصيل في الفصول : الثاني والثالث من هذا الكتاب ، وذلك عند الحديث عن دور العرب في نقل وشرح تراث اليونان .

النظريات المُفسِّرة لقيام الحضارة

برز في تاريخ الحضارة عدة نظريات ، حاول أصحابها أن يفسروا من خلالها الكيفية التي تنشأ بها الحضارة ، ولا تزال تلك المسألة محل بحث كبير ، ولا تزال الدراسات والبحوث تخرج علينا كل يوم بنظريات لا تخلو أفكارها من طرافة في بعض الأوقات ، وجِدّة وعمق يسترعيان الانتباه والتأمل في أوقات أخرى ، ولأن هذا الكتاب ليس مخصصاً لدراسة هذه القضية بالتحديد ، لذا فإننا سنكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى أهم تلك النظريات ، محاولين في الوقت نفسه أن تكون نظرتنا من الخارج ، دون أن نقحم أنفسنا في الانتصار لأيٍّ منها .

(1) **نظرية المّاديّة التاريخية** : فسرت نظرية المادية التاريخية والتي تبناها العديد من المفكرين أبرزهم ماركس [30] وإنجلز [31] قيام الحضارات بالدافع الاقتصادي ، وأن نتاج الحضارات البشرية يعود في المقام الأول إلى دور العامل الاقتصادي . وفي الحقيقة إذا حاولنا فهم النظرة الماركسية للنزعة المادية الفلسفية ، فسوف نجد أنها تقوم على المبدأ القائل بأن العالم بطبيعته مادي ، وأن مختلف ظواهر الكون إنما هي جوانب مختلفة للمادة في حركتها ، وأن العلاقات والشروط بين الظواهر التي يكشف عنها المنهج الجدلي [32] هي القوانين الضرورية لنمو المادة المتحركة ، وأن العالم ينمو حسب قوانين حركة المادة ، وهو ليس بحاجة لأي روح شامل [33] .

ولذلك فإن تلك النظرية تنظر إلى تاريخ تطور المجتمع على أنه – قبل كل شيء – تاريخ

---

(30) كارل ماركس " Karl Marx " (1818 – 1883 م) ، فيلسوف ألماني وعالم اجتماع ومؤرخ .

(31) فريدريش إنجلز " Friedrich Engels " (1820 – 1895 م) ، فيلسوف ورجل صناعة ألماني .

(32) المنهج الجدلي (Dialectic) إحدى طرق المناقشة والاستدلال ، وقد أخذ معاني متعددة في المدارس الفلسفية المختلفة ، فهو عند سقراط : مناقشة تقوم على حوار وسؤال وجواب ، وعند أفلاطون : منهج في التحليل المنطقي يقوم على قسمة الأشياء إلى أجناس وأنواع ، بحيث يصبح علم المبادئ الأولى والحقائق الأزلية ، وعند هيجل : انتقال الذهن من قضية ونقيضها إلى قضية ناتجة عنها ، ثم متابعة ذلك حتى نصل إلى المطلق . (انظر : المعجم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، 1403 هـ - 1983 م ، ص ص 59 -60) .

(33) جورج بوليتزر وآخرون : أصول الفلسفة الماركسية ، تعريب شعبان بركات ، بيروت – صيدا ، المكتبة العصرية ، د . ت ، ص 152 .

تطور الإنتاج ، تاريخ أساليب الإنتاج التي تتعاقب خلال العصور ، تاريخ تطور القوى المنتجة ، وعلاقات الإنتاج بين الناس ، كما أن تاريخ التطور الاجتماعي – عندهم – هو في الوقت نفسه تاريخ منتجي الحوائج المادية ، تاريخ الجماهير الكادحة التي هي القوي الرئيسة في الإنتاج [34] .

بالطبع فإن كثيراً من النظريات التي ظهرت في مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية كان أصحابها قد تأثروا إلى حد كبير بظروف عصرهم وواقع مجتمعاتهم ، ولا ريب أن ماركس ورفاقه كانوا متأثرين بالواقع الاقتصادي الذي عاصروه ، وبالهوة التي كانت تفصل بين طبقات المجتمع ، ولهذا جاء تركيزهم منصباً على العامل الاقتصادي ودوره في بناء الحضارة ، ورغم أن ماركس ورفاقه كان لهم فضل في تنبيهنا إلى أهمية العامل الاقتصادي ، والصراع بين الطبقات في تفسير حركة التاريخ ، إلا أن سهام النقد التي وجهت إليهم كانت كثيرة ، فبعيداً عن البعد العقدي في هذا الفلسفة والذي لا يتفق مع الإسلام ، فإن تلك النظرية تقوم على الحتمية ، كما ابتعد ماركس ورفاقه عن العلم والعلمية كثيراً ، وحاولا فرض توجهات فكرية ونظريات عقائدية تخصهم هم وحدهم ولا تخص الحقيقة العلمية أو الواقع الموضوعي ، وذلك رغم محاولاتهم الاستشهاد بالواقع التاريخي أو الاعتماد على علوم عصرهم المختلفة [35].

ويكفي القول إنه لو كانت هذه النظرية - والأساس الفلسفي الذي ارتكزت عليه بأبعاده المختلفة - صالحة للبقاء لما سقطت هذا السقوط المدويّ أمام الفلسفة الرأسمالية الغربية التي تتزعم عالم اليوم ، وحتى تلك البلدان التي تزعم أنها ما زالت تسير على تلك المبادئ التي جاء بها ماركس ورفاقه سواء في آسيا أو أمريكا اللاتينية ، فإنهم يخدعون أنفسهم أو بمعنى أصح يخدعون شعوبهم ، إذ من الواضح أنه لا توجد علاقة بين النظرية والتطبيق ، وأن الزمرة الحاكمة تتلاعب بأحلام المواطنين البسطاء تحت شعارات زائفة روجت لها تلك الفلسفات طويلاً .

(2) **النظرية العنصرية** : وأما أكثر نظريات الحضارة العنصرية شيوعاً ، فهي تلك النظرية التي تضع على منصة الشرف السلالة ذات البشرة البيضاء والشعر الأصفر والعيون الشهباء

---

(34) ستالين : المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، دار دمشق للطباعة والنشر ، د . ت ، ص ص 73 – 74 .

(35) يمكن أن تراجع في ذلك الطريقة التي اتبعها انجلز واعتماده على علمي الفيزياء والكيمياء ، للتدليل على أن التغيرات الكمية تنقلب إلى تغيرات كيفية في التطور الدياكتيكي . (ستالين : المرجع السابق ، ص ص 29 – 30) .

والرأس الطويل ، والتي يدعوها البعض بالإنسان النوردي أو بالوحش الأشقر [36] .

وبالطبع فإن أعراض الضعف والتهالك بادية في تلك النظرية ، إذ الحضارة – كما اتفقنا سابقاً – لا تتوقف على جنس دون جنس ، فقد تظهر في هذه القارة أو تلك ، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذاك [37] ، فالأجناس كلها تشترك في درجات الذكاء ، وإذا كان بعضها قد سبق بعضها الآخر في ميدان الحضارة ، لأن ذلك السبق لا يعم كل أفراد جنس واحد بحيث يصبح له ميزة على غيره [38] .

(3) **نظرية البيـــئة** : هذا في حين حاول اليونانيون – من خلال ما يسمى بنظرية البيئة – أن يجدوا عاملاً آخر غير الوراثة البيولوجية للسمات البدنية – أي العنصر – لتفسير الاختلافات الثقافية التي لاحظوها حولهم ، فوجد المراقبون اليونانيون التفسير في الموقع الجغرافي والتربة والمُناخ ، وتحاول كلتا النظريتين السابقتين تعليل التباين الملحوظ في التصرف والسلوك النفسي (الفكري والروحي) ، لأقسام مختلفة من البشر بافتراض علاقة سببية دائمة بين العلة والمعلول ، بين هذا التباين النفسي وطائفة من عناصر التباين الذي لوحظ في محيط الطبيعة غير الروحي ، وتجد نظرية العنصر علة التنوع في اختلاف الصفات البدنية البشرية ، وتجده نظرية البيئة في اختلاف الأحوال المُناخية والجغرافية ، التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة [39] . ولكـن يبـدو أنه لا الجنس ، ولا حتى البيئة – إن أُخذ كلٌ بمفرده – يمثل العامل الإيجابي الذي أيقظ الجنس البشري في غضون ستة آلاف سنة ماضية من حالة الركود في مجتمع بدائي ، ودفعه إلى طريق محفوف بالمخاطر سعياً وراء الحضارة [40] .

والآن نتوقف مع أشهر نظرية معاصرة لتفسير الحضارة ، وهي نظرية التحدي والاستجابة للمؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي [41] ، لنناقش ما فيها من أفكار واجتهادات علمية .

---

(36) أرنولد توينبي : مختصر دراسة للتاريخ ، ترجمة فؤاد محمد شبل ، مراجعة محمد شفيق غربال ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، المركز القومي للترجمة ، 2011 م ، جـ 1 ، ص ص 87 – 88 .

(37) ديورانت : قصة الحضارة ، جـ 1 ، ص 6 .

(38) د . حسين مؤنس : الحضارة ، ص ص 18 – 19 .

(39) توينبي : المرجع السابق ، جـ 1 ، ص ص 94 – 95 .

(40) توينبي : المرجع السابق ، جـ 1 ، ص 100 .

(41) أرنولد توينبي " Arnold J . Toynbee " (1889 – 1975 م)،مؤرخ انجليزي، صاحب كتاب " = =

(4) **نظرية التحدي والاستجابة** : نظرية التحدي والاستجابة من أشهر النظريات التي فسرت قيام الحضارات ، وصاحبها هو المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي " Arnold J . Toynbee " ، وتركز تلك النظرية بصفة خاصة على تفسير قيام الحضارات من خلال التحدي والاستجابة ، أي إن التحديات الطبيعية والجغرافية التي وجدها الإنسان أمامـه واستجابته أو رد فعله تجاه تلك التحـــديات هـــي الـــتي خلـــقت الحضـــــــارة .

وقــد فــسر توينــبي قيـام الحضــارتـيـن السـومـرية فـي بـلاد الرافدين والمصرية القديمة في وادي النيل ، بذلك الجفاف الذي تعرضت له الصحراء الكبرى الإفريقية وكذلك الصحاري الآسيوية بعد نهاية العـــــصر الجليدي ، مما أدي إلى إجبار الناس على التحرك نحو سهول وادي الرافدين ووادي النيل وخلق الحضارة فيهما ، ويشرح توينبي كيفية وجود التحدي وأنواع الاستجابة له بقوله : -

" إزاء الجفاف التدريجي أصبح على السكان الصيادين الذين تأثروا بهذا التغير أن يختاروا أحد أمور ثلاثة وهي : التحرك نحو الشمال أو الجنوب مع صيدهم ، متتبعين المنطقة المناخية التي ألفوها ، أو البقاء في موضعهم والحياة تعسة مكتفين بما يصيدونه من الحيوانات التي قد تقاوم الجفاف ، أو يستطيعون من غير أن يهجروا موطنهم الجديد تحرير أنفسهم من الاعتماد على احتمالات بيئتهم ، باستئناس الحيوانات وفلاحهم الأرض " [42] . إلى أن يقول : -

" ففي حالة أولئك الذين عزفوا عن تغيير موطنهم وتبديل طريقة معيشتهم ، كان الانقراض جزاء فشلهم في الاستجابة لتحدي الجفاف ، وأما الذين تفادوا تغيير موطنهم بتعديل طريقة معيشتهم ، وبتحويل أنفسهم من صيادين إلى رعاة أصبحوا بدو السهب الأفراسي ... ، أما أولئك الذي آثروا تغيير موطنهم على تعديل طريقة معيشتهم ، أي تلك الجماعات التي تجنبت الجدب باتباع منطقة الأعاصير في تحولها شمالاً معرضين أنفسهم – من غير قصد – لتحدي البرد الموسمي الشمالي ، فقد أثارت فيهم بيئتهم الجديدة استجابة خلاقة جديدة ، بينما وقعت الجماعات التي تجنبت الجدب بالارتداد جنوباً إلى منطقة الرياح الموسمية ، تحت التأثير المنوِّم للمناخ المداري الذي يسير على نمط رتيب لا يتغير ، وأخيراً ثمة جماعات استجابت لتحدي الجفاف بتغيير مواطنها وطريقة

دراسة للتاريخ ".

(42) توينبي : مختصر دراسة للتاريخ ، جـ 1 ، ص 115 .

معيشتها معاً ، وكان رد الفعل هذا المضاعف النادر هو العمل ذا القوة الدافقة ، الذي خلق الحضارتين المصرية والسومرية من بين ظهراني المجتمعات البدائية " [43] .

في الواقع إن هذه النظرية تعد من أهم النظريات التي اجتهد صاحبها كثيراً في تفسير نشأة الحضارة ، وقد تتوافر لتلك النظريات أدلة جيولوجية داعمة خاصة فيما يتعلق بالحضارتين المصرية والسومرية ، فالدليل الجيولوجي يخبرنا أنه منذ آلاف السنين وقبل قيام الحضارة المصرية كانت أقاليم شمال إفريقيا القريبة من نهر النيل أرض خصبة ،وهذا بدوره أتاح وجود

مجتمعات في تلك المناطق مستفيدة من الأرض الخصبة ، ولكن حوالي سنة 3500 ق . م – كما يرى بعض المؤرخين – بدأت هذه الأرض تتغير بشكل كبير، وتحول هذا الإقليم إلى صحاري ، فهاجر السكان بحثاً عن بيئة صالحة للزراعة وتربية الحيوانات إلى المنطقة المحيطة بنهر النيل ، مكونين بذلك أقاليم صغيرة ، خرجت إلى الوجود منذ عام 3000 ق . م [44] .

ورغم إعجابنا بتلك النظرية ، إلا أننا نتساءل – وآخرون معنا - : هل من الممكن إذن أن نضع قانوناً لهذا فنقول : إنه كلما اشتد التحدي زاد الدافع المحرض للقوة ؟ .

كلا ، ليس الأمر بهذه البساطة ، لأن بعض الحضارات تستجيب لتحديات معينة في حين لا تستجيب حضارات أخرى لها ، ولقد حيرت غابات شمال أوروبا الإنسان البدائي ، في حين أن الرومان أسسوا مجتمعات زاهرة وسط تلك الغابات ، ويصح هذا أيضاً على المستوطنين البيض في غابات شمال أمريكا ، لأنهم استجابوا للتحدي الذي لم يستجب له الهنود [45] .

وقد يجيب أنصار تلك النظرية بأن توينبي يفسر نشأة الحضارة في ضوء الاستجابة للتحدي ، بمعنى أن العامل الأساسي ليس هو التحدي في حد ذاته بل هو الاستجابة له ، فمَن يستجيب للتحدي يصبح مؤهلاً للتحضر والعكس صحيح ، فالإنسان البدائي في غابات الشمال لم يستجب

(43) المرجع نفسه : جـ 1 ، ص 116 .

(44) Michael J . O’Neal : Egypt , in (Encyclopedia of Society and Culture in the Ancient World) , Editor in Chief Peter Bogucki , New York , Facts On File an imprint Infobase Publishing . 2008 , Volume I , P 20.

(45) كولن ولسون : سقوط الحضارة ، نقله إلى العربية أنيس زكي حسن ، ، بيروت ، منشورات دار الآداب ، 1982م، ص ص 149 – 150 .

للتحدي ، لأن تلك الغابات لم تكن تشكل له تحدٍ ، أو لم ينظر هو إليها على أنها تشكل له تحدٍ ، وبالتالي فشل في تطويعها لحاجاته ، فتعايش معها واستطاع التكيف ، ومن هنا لم يستطع إنشاء الحضارة ، في حين أن تلك الغابات شكلت تحدٍ للرومان لأنهم لم يستطيعوا التكيف معها فاستجابوا للتحدي ، ومثل ذلك يصدق على الهنود في غابات أمريكا الشمالية فإنهم لم يستجيبوا للتحدي لأن الغابات لم تكن تشكل تحدٍ لهم ، في حين شكلت تحدٍ للمستوطن الأبيض فاستجاب لذلك التحدي ، فالعبرة – كما أفهمها في النظرية – ليست في وجود التحدي نفسه بل في الاستجابة لذلك التحدي ، فقد يوجد التحدي ولكنه لا يحرك قوة استجابة فلا يحدث عندئذ تغيير ، أما إذا وجدت الاستجابة القادرة على مواجهة التحدي ، هنا يوجد التغيير والتطور الذي يمكن أن تنشأ عنه الحضارة .

حاولت أن أضع نفسي مكان أنصار تلك النظرية والمعجبين بها ، وأن أدفع عنها سهــام النقد في ضوء ما فهمته منها ، ومع ذلك فهناك سهام أخرى مصوبة إلى تلك النظريات قد لا يستطيع أنصارها أن يدفعوها عنها ، من ذلك مثلاً أن توينبي – في نظريته – قد وقع أسيراً للعقيدة المسيحية ، وقرأ الحضارات بل وقاسها على مقياس الحضارة المسيحية [46] ، وبذلك يكون قد ابتعد عن المنهج التجريبي الذي زعم أنه قرأ التاريخ في ضوئه . ومن ذلك أيضاً أن توينبي قد جعل الحضارة ، أو بمعنى أدق الاستجابة التي هي مفتاح الحضارة مرهون بتحرك أقلية مبدعة ، بحيث إذا تحولت إلى أقلية مسيطرة وفقدت امتيازها تبدأ الحضارة في أخذ طريقها إلى الانهيار [47]، وبذلك يكون قد أهمل دور المجتمع الذي نشأ في أحضانه هؤلاء المبدعون ، واستبعد أي دور له في قيام الحضارة .

أما عندما تحدث عن الحضارة الإسلامية فإنه حاول أن يجري تحليلاً مقارناً بين المجتمعين الإسلامي والهليني (اليوناني) ، وقد جانبه الصواب في جزء كبير من هذا التحليل ، فهو مثلاً يتحدث عن أن سلف المجتمع الإسلامي ليس له عقب واحد بل له توأمان مثل المجتمع الهليني ، لكن الخلاف – كما يرى – أن المجتمع الغربي والأرثوذكسي - توأما المجتمع الهليني - عاشا جنباً إلى جنب بعد انتهاء المجتمع الهليني، بينما لم يستطع توأما المجتمع الإسلامي – وهما

(46) راجع في ذلك مثلاً تدليله على التحدي والاستجابة بأدلة مستمدة من الأساطير المتضمَّنة فيما يسمى بالكتاب المقدس (بعهديه القديم والجديد) . (مختصر دراسة للتاريخ : جـ 1 ، ص ص 101 – 112) .

(47) توينبي : مختصر دراسة للتاريخ ، جـ 1 ، ص 412 .

المجتمع العربي والمجتمع الإيراني – أن يعيشا جنباً إلى جنب فابتلع أحدهما الآخر [48] . وإذا أراد توينبي الإنصاف في تحليله التاريخي لعَلِم أن سلف المجتمع الإسلامي ليس له إلا عقب واحد هو المجتمع الإسلامي وحسب ، وإيران نفسها لم تشذ عن هذا العقب قبل أن يصبح المذهب الشيعي في الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي هو المذهب الرسمي ، ولو سايرناه في هذا التقسيم الذي ذهب إليه لوجب أن يكون لسلف المجتمع الإسلامي أكثر من توأمين ، إذ إنه استثنى من هذا العقب مجتمعات إسلامية كبيرة مثل المجتمع الإندونيسي والماليزي ، فهما خليط من مجموعات عرقية متباينة ، فهل سيُصنفون ضمن المجتمع العربي أم الإيراني ؟ .

ومن جهة أخرى يدرك المتأمل لنظرية توينبي أنه قد سار في نفس الخط الذي سار فيه من قبل أساطين المستشرقين ، والذين رددوا كثيراً أن الإسلام منقول من تعاليم يهودية ومسيحية ويهودية . وفي هذا يقول توينبي : " إن الجرثومة المبدعة في الإسلام لم تكن غريبة عن المجتمع السوري ، بل إنها منه ، وإن ما أتى به الإسلام عن اليهودية وهي ديانة سورية محضة ، وعن المسيحية النسطورية [49] وهي أحد أشكال المسيحية ساد فيه العنصر السوري الهليني ، إنما هو مصداقاً لما ورد في القرآن " مُصدِّقاً لِمَا بين يدَيه من التوراةِ والإنجيل ". كما يرى أيضاً أن التأثيرات الهلينية واضحة في الإسلام ، حيث استقى الإسلام – كما استقت المسيحية – من تلك العبادات الهلينية ذوات الطقوس السرية والفلسفة الهلينية [50] .

أما عن مسألة نقل الإسلام من اليهودية والمسيحية فينبغي أن نفهم أولاً - ومعنا مناصرو نظرية توينبي - أن أصل الأديان كلها واحد ، إذ إن منبع الإرسال فيها واحد ، فهي كلها من لدن حكيم خبير ، فلا ضير أن يكون هناك تشابه بين الأديان في بعض العبادات والمعاملات ، أما القول بأن الجرثومة المبدعة في الإسلام – أي النواة الأولى له – إنما هي سورية منقولة من اليهودية والمسيحية مصداقاً للآية التي استشهد بها توينبي فهو قول غير صحيح ، ولقد عجز من

---

(48) المرجع نفسه : جـ 1 ، ص ص 27 – 28 .

(49) النسطورية منسوبة إلى "نسطورس " وهو راهب أنطاكي كان بطريركاً على القسطنطينية ، وقد أنكر إمكان إطلاق لقب والدة الإله على العذراء مريم ؛ ذاهباً إلى أنها لم تكن سوى أم لعيسى ؛ فتم طرده من الكنيسة وحرمانه (للمزيد انظر : على بن أحمد بن حزم الظاهري ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبدالرحمن عميرة ، بيروت ، دار ، الجيل ، طـ 2 ، 1416 هـ- 1996 م ، جـ 1 ،ص111)

(50) مختصر دراسة للتاريخ : جـ 1 ، ص 33 .

سبقوه عن الإتيان ببرهان مقبول عقلاً ونقلاً لذلك الزعم وتلك الفرية ، بل إن الاستشهاد بقوله تعالى " ومصدقاً لِمَا بين يدَيه من التوراة والإنجيل " يظهر عدم الفهم الكامل للدليل الذي استند عليه للأسباب الآتية:

أولاً : الآية التي ذكرها توينبي غير صحيحة ، والصحيح قوله تعالى : " نَزَّلَ عَلَيكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقَاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ " (51) .

ثانياً : بناءً على ما أوردناه أولاً فمعنى الآية ليس كما فهمه توينبي ، لأن الله تعالى يخبر فيها نبيه - ﷺ - أنه أنزل الكتاب : أي القرآن ، بالحق : أي بالصدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل ، أما قوله تعالى " مُصَدِّقَاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ " فتأويله : أن هذا القرآن مصدقٌ لما كان قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله ، ومُحققٌ ما جاءت به رسل الله من عنده ، لأن مُنزل جميع ذلك واحد ، وبعد أن انتهي القرآن من هذا المعنى ، أخبر الله تعالى نبيه - ﷺ - أنه أنزل التوراة : أي على موسى ، والإنجيل : أي على عيسى ، من قبلُ : أي من قبل الكتاب الذي نزل عليك (52) .

وبالإضافة إلى ما سبق فهناك أشياء أخرى قد أُخذت على توينبي لا يتسع لها المقام هنا ، ورغم ذلك فلا تخلو الأفكار التي بنى عليها توينبي نظريته من دقة نظر علمية واضحة ، كما أنها تظهر فهماً عميقاً لحركة التاريخ ، وصبراً طويلاً من صاحبها على البحث ، وهو ما يتراءى لنا بين جنبات تلك النظرية ، مما يجعلها – من وجهة نظري المتواضعة – من أهم النظريات التي حاولت تفسير نشأة الحضارة حتى الآن .

(51) سورة آل عمران : آية (3) . وقد يكون الخطأ راجعاً إلى مترجم الكتاب .

(52) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تفسير الطبري – جامع البيان عن تأويل آي القرآن - ، هذبه وحققه الدكتور بشار عواد معروف ، وعصام فارس الحرستاني ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط 1 ، 1415هـ - 1994م ، جـ 2 ، ص 209 .

أسباب انهيار الحضارات

هل هناك قانون يمكن أن يلجأ إليه مؤرخ الحضارة في تفسير أسباب انهيارها ؟ .

وهل هناك معطيات أو دلالات ، يمكن أن يستعين بها مؤرخ الحضارة في الكشف عن تلك المدنيات المرشحة للزوال من على الساحة حالياً ؟ .

أعتقد أنه ليس هناك قانون محدد أو قاعدة عامة ، يمكن أن يلجأ إليها مؤرخ الحضارة في تفسير أسباب انهيارها ، ولكن هناك مجموعة معطيات أو إرهاصات ، إذا ما تكاملت أركانها في مدنية ما فإنها حتماً في طريقها إلى الزوال ، فلو انعدمت مثلاً تلك العوامل التي ذكرناها سابقاً لقيام الحضارة – بل ربما لو انعدم واحد منها – لجاز للمدنية أن يتقوض أساسها ، فانقلاب جيولوجي خطير ، أو تغير مُناخي شديد ، أو وباء يفلت من الناس زمامه ، أو زوال الخصوبة من الأرض ، قد يؤدي إلى تدهور الحضارة واندثارها ، وقد يُفهم من ذلك أن فقدان السيطرة على البيئة الطبيعية يمكن أن يصبح سبباً في انهيار الحضارة ، نعم ، ولكن مع ذلك فإن هناك أسباباً أخرى أشد تأثيراً وأقوى عمقاً ، قد تكون هي الأقرب إلى تفسير أسباب انهيار الحضارات ، وهي -:

(1) **الترف والانغماس في النعيم** : وذلك أن الترف إذا ما شوهدت عوارضه في مدنية ما ، فإن أبناءها تضعف همتهم عن التفنن والابتكار اللذين هما قوام الحضارة ، ويلجئون إلى التنعم فيما آتاهم الله ، ثم تنشأ بنوهم وأعقابهم على مثل ما كان عليه الآباء ، فتضعف بذلك الهمم بالجملة عند أبناء تلك المدنية ، ويشرفون على الفناء . وقـــد أشـــــار بعض المؤرخين إلى أن " الطبقات الحاكمة " تنحط لأنها تسمح لنفسها بالإغراق في الراحة ، فتصبح متفسخة ضعيفة ، فإذا واجهت حضارة معينة – كما يرى توينبي – تحدياً معيناً بنجاح فإن ذلك يعني أنها ستميل إلى الراحة وتبتعد عن ظروفها السابقة ، بحيث يكون محتملاً أن تفشل في مواجهة تحدٍ ثانٍ [53] . ولقد سبق ابن خلدون الجميع في توضيح دور الترف في انهيار الحضارة ، وفي ذلك يقول : -

" إذا أخذت الدولة في الترف وما يدعو إليه من توابع ، فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية و البسالة ، ويتنعمون فيما آتاهم الله من البسطة ، وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من

(53) كولن ولسون : سقوط الحضارة ، ص 151 .

الترف عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ، ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية حتى يصير ذلك خُلُقاً لهم وسجية ، فتنقضي عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدها بتعاقبها ، إلى أن تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض ، وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء فضلاً عن المُلك ، فإن عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سور العصبية التي بها التغلب ، وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبة ، والتهمتهم الأمم سواهم " (54) .

وابن خلدون إذ ينظر إلى الترف من زاوية كونه ذاهبٌ بالقوة التي بها قوام المُلك ، إلا أننا ننظر إلى كون الترف سبباً في انهيار الحضارة من زاوية أخرى ، وهي أن الترف مؤذن بانتشار الفساد وتغلب المفسدين ، وبالتالي تراجع المصلحين ، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى : -

" وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرنَاهَا تَدْمِيراً "(55) .

ورغم أن مِن المفسرين مَن ذهب إلى أن تأويل الآية معناه : أي أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا ، فحق عليهم القول (56) ، إلا أن ما نفهمه من ورود كلمة " مترفيها " بالذات في الآية قد يكون فيه إشارة إلى قوم بعينهم وهم المُترَفون ، لأن الترف الزائد قد يؤدي بصاحبه إلى الطغيان وتجاوز الحد ، والإفساد في الأرض الذي يكون به خراب العمران ، ولذلك يقول اللغويون في معنى الترف : أَتْرَفته النعمة أي أطغته (57) . وأيضاً فقد وردت صيغ كثيرة للكلمة في القرآن الكريم ، وكلها تدور حول معنى واحد تقريباً ، وهو أن الترف كان سبباً في الفساد والخسارة وانهيار المُلك ، فقد وردت الكلمة – مثلاً - في سورة الواقعة ، في معرض تفسير الأسباب التي أدت إلى دخول أصحاب الشمال النار ، حيث

---

(54) مقدمة ابن خلدون : ص ص 99 – 100 .

(55) سورة الإسراء : آية (16) .

(56) منهم على سبيل المثال : الطبري ، جامع البيان ، جـ 5 ، ص 17 ، عبد الرحمن بن أبي حاتم : تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله - ﷺ - والصحابة والتابعين ، الرياض ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، ط 1 ، 1417هـ - 1997م ، جـ 7 ، ص 2321 .

(57) الجوهري : الصِّحاح ، جـ 3 ، ص 1333 .

كان من تلك الأسباب : " إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ " [58] ، كما وردت أيضاً في سورة الأنبياء ، في معرض الحديث عن هــلاك الـقـرى ، حيـث كـــان الـتـرف أحد أسبـــاب ذلك الهـــلاك ، وفي ذلـك يقـول المــولى عــزَّ وجـلَّ : " وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ " [59] ، وأخيراً فقد قَرَنَ القرآن الكريم الترف بالظلم والإجرام ، وهما العلامتان المؤكِّدتان لخراب العمران ، قال تعالى : " فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ " [60] . والآيات كثيرة في هذا المعنى ، ولذلك نحن نقول لو كان المترفون في آية الإسراء هم أهل القرية جميعاً لكان من الممكن أن يقول الله تعالى " أمرنا أهلها " ، ولكنه تعالى قال " أمرنا مترفيها " لأن هذه الكلمة بالذات تحمل دلالة مهمة ، قُصد منها إيصال معنى خاص يتعلق بأحد أسباب هلاك الأمم ، لا يمكن أن تؤديه كلمة " أهلها " بمعناها العام ، والله تعالى أعلم .

(2) **الظُّلم مُؤذِن بخراب العمران** : وهذا من أهم الأسباب التي تعجل بزوال الحضارات وانهيارها، إذ لا ريب أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهبٌ بآمالهم في تحصيلها واكتسابها ، لِمَا يرونه حينئذٍ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم ، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك ، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب ، فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش ، كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة، وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته . والعمران والتحضر ووفورهما ونفاق أسواقهما إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ، فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب أدى ذلك إلى كساد أسواق العمران . وينبغي أن نفهم أن الظلم ليس في أخذ المال أو المُلك من يد مالكه من غير عِوض ولا سبب فقط، بل الظلم أعم من ذلك ، فهو يشمل كل صور الاستبداد والقهر والعدوان والتسلط ، فكل مَن أخذ مُلك أحد أو غصبه في عمله ، أو طالبه بغير حق ، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه ، فجُباة الأموال بغير حقها ظَلَمة ، والمعتدون عليها ظَلَمة ، والمنتهبون

(58) سورة الواقعة : آية (45) .

(59) سورة الأنبياء : آية (11 - 13) .

(60) سورة هود : آية (116) .

لها ظَلَمة ، والمانعون لحقوق الناس ظَلَمة وغُصَّاب الأملاك على العموم ظَلَمة ، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها ، لإذهابه الآمال من أهله ، وهذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم ، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه ، وذلك مؤذِن بانقطاع النوع البشري [61] .

(3) **انهيار الأخـــــــلاق** : وذلك أن الحضارة إذا كانت تحتاج في قيامها إلى وجود قانون خُلُقي يربط بين الناس ، أو منظومة أخلاقية تحفظ المجتمع من التحلل والاهتراء ، فلا ريب أن انهيار الأخلاق مؤذِن بانهيار الحضارة أيضاً ، إذ الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف من مفاسد الحضارة ، والإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره ، واستقامة خُلُقه للسعي في ذلك ، فإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فَقَدْ فَقَدَ إنسانيته [62] .

(4) **الانقسام العَقَدي وتراجع الدين** : وقد أوضحنا سابقاً أنه لا بد لقيام الحضارة من وجود قدر من الاتفاق بين الناس على العقائد الرئيسية ، أو وجود دعوة دينية متفق عليها ، لأن تلك الدعوة وذلك الاتفاق العَقَديّ يُذهِب بالتنافس والتحاسد ، ويصبح ذلك من أقوى الأسباب في تحقيق الاتحاد والذي به تُبنى الحضارة ، وإذا كان ذلك قد تقرر فهذا معناه أنَّ تراجع الدين في النفوس ، أو انقسام أصحاب العقيدة الواحدة على أنفسهم شِيَعاً وأحزاباً متنافسين ، قد يُضعف الدولة ويجعلها مرشحة للانهيار ، إذ الدين أو العقيدة المتفق عليها هما الضامن الأكيد للاتحاد ، فإذا اختلفت اللغات والأعراق والأجناس جمع الدين بين الجميع ، ولكن إذا غابت العقيدة حضرت تلك التباينات ، والتي تُسلم الدولة إلى الفوضى فالانهيار .

وإذا كـــان الـــدين ووحـــدة العقيـــدة من أهـــم عـــوامل قيـــام الحضــــارة ، فلا يُعقـــل أن يكـــون الـــدين نفســه سبباً في انهيار الحضارة كما يدعي نيل تايسون [63] ، ذلك لأن العِلَّة الواحــدة لا يمكـن أن يصدر عنها معلولات متناقضة .

(61) ابن خلدون : المقدمة ، ص ص 201 – 202 .

(62) المصدر نفسه : ص ص 262 -263 بتصرف .

(63) نيل تايسون " Neil de grasse Tyson " ، عالم أمريكي متخصص بالفيزياء الفلكية .

وقد ادَّعى تايسون في إحدى محاضراته [64] أنه بعد أن كانت بغداد حاضرة العلم ، ومركز التقدم العلمي في كل المجالات ، جاء الغزالي [65] وأدخل التخلف عليهم لرَدِّهِ على الفلاسفة ، لأنه – كما يقول تايسون – قام بتجريم الرياضيات والفلسفة ونسبها للشيطان ، لذلك انهارت الحضارة الإسلامية ، وتايسون – كما يُصرِّح – يهدف أن يشرح طريقة التفكير عن عالم الطبيعة عندما تتحول من الطريقة العلمية إلى أن يشرح الوحي كل شيء ، ثم هو كما يتضح من المحاضرة لا يهدف إلى فصل الدين عن العلم في الإسلام فقط ، بل إنه أيضاً راح يسحب نفس الفهم على المسيحية ، وذلك عندما تكلم عن نظرية الانفجار العظيم ، وتهكُم بعض الأمريكان عليها لأنها تعارض ما جاء في الإنجيل .

وبالطبع فإن غرض تايسون واضح ، وهو أن يُلقي باللوم على الدِّين في تراجع الحضارة الإسلامية ، وأن يُظهر أن علماء الدِّين وفتاواهم هم السبب في حالة الركود العلمي ، والذي أسلم بدوره الحضارة الإسلامية إلى التراجع ، وهذا الأمر مردود عليه من وجوه :

أولاً : بالنسبة لأبي حامد الغزالي فقد كانت تلك المرحلة ردة فعل منه بعد انقلابه على الفلسفة والفلاسفة ، كما أن هجومه على الفلسفة يعد نوعاً من المناقشات الحرة والمساجلات الفلسفية ، والتي لم يخلو منها عصر من عصور العلم ، خصوصاً ونحن نعلم أن هناك من انبرى للرد على الغزالي ونقد فكرته [66] ، ومع ذلك فمن الظلم أن يُتهم الغزالي بأنه كان سبباً انهيار الحضارة الإسلامية لموقفه من الفلسفة ومنتحليها ، فالغزالي لم يكن عدواً للفلسفة على طول الخط كما قد يتوهم البعض . والدليل على ذلك أنه حتى بعد انقلابه الفكري على الفلسفة يُصرِّح بأنها راجعة إلى ثلاثة أقسام : ما يُذَمُّ منه وما لا يُذَم ، وما يُكَفَّر فيه قائله وما لا يُكَفَّر ، وما يُبدَّع فيه وما لا يُبدَّع [67] ، وهذا يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الرجل لم يضع

(64) انظر هذا الرابط : https://www.youtube.com/watch?v=noHbcmfoYHg .

(65) أبو حامد الغزالي محمد بن محمد الطوسي (450 – 505 هـ / 1058 – 1111 م) ، حجة الإسلام وأحد أشهر فلاسفة المسلمين، من تصانيفه : إحياء علوم الدين ، تهافت الفلاسفة ، الأربعين ، وغيرها من الكتب . (للمزيد انظر : محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ 19 ، ص ص 322 – 345) .

(66) مثل ابن رشد في كتابه (تهافت التهافت) . (المصدر نفسه ، جـ 21 ، ص 309) .

(67) أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال ، حققه وقدم له محمود بيجو،راجعه الدكتور محمد سعيد رمضان=

الدراسات والبحوث الفلسفية كلها في سلة واحدة ، وسبب ذلك ببساطة أن الرجل لم يستطع أن يتخلص نهائياً من تأثير الفلسفة ، حتى قال أحدهم في ذلك : " إن أبا حامد بَلَعَ الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع " (68) .

ومع ذلك فإذا سلمنا جدلاً بأن الغزالي قام بالفعل بتحريم دراسة الفلسفة والرياضيات ، فهل يُعقل عند عاقل أن تتسبب فتوى عالم واحد – مهما كان شأوه – في انهيار حضارة كاملة أنارت ظلام العصور الوسطى ؟ أو تقوِّض أركانها التي ثبتت قروناً طويلة ؟ .

ثانياً : إن مما يثبت جهل تايسون بتاريخ الحضارة الإسلامية ، أن المناطقة والفلاسفة أنفسهم قد أسهموا بدور كبير في نشر علم التفسير وغيره من علوم الشريعة ، ولم يكن أحد من علماء الدين ينظر إلى ذلك الأمر بارتياب ، أو يحظر على الفلاسفة الاقتراب من المحظور الديني ، ويكفي للتدليل على ذلك أن أحد أبرز علماء النصارى وهو يحيى بن عدي المنطقي (ت حوالي 364 هـ / 965 م) عندما عاتبه أحد أصدقائه على كثرة كتابته ، قال له : " من أي شيء تعجب في هذا الوقت، من صبري ، وقد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما إلى ملوك الأطراف (69) .

ثالثاً : فإذا اعترض تايسون على ما ذهبنا إليه بأن ذلك كان قبل فتوى الغزالي ، قلنا له : وحتى بعد عصر الغزالي فقد استمرت الحضارة الإسلامية ولم تندثر بعد ثلاثة قرون فقط كما تدعي ، وحتى لا نُتهم بالتحيز فلسنا نصدر في التأصيل لتلك الحجة على مصادرنا نحن ، بل إننا هنا سنستعرض فقط خلاصة ما توصل إليه اثنان من كبار المتخصصين في الحضارة الإسلامية من غير المسلمين ، وهما : المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون (70) ، والمستشرق الروسي بارتولد (71) .

يقول لوبون : - " رغم الانحطاط السياسي لبغداد أواخر القرن العاشر الميلادي ، مما أوجد

=البوطي ، الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ، دمشق ، دار التقوي – عمَّان ، دار الفتح ، د . ت ، ص 41 .

(68) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ 19 ، ص 327 .

(69) النديم : الفهرست ، ص 369 .

(70) Gustave Lebon (7 مايو 1841م – 13 ديسمبر 1931م) ، طبيب ومؤرخ فرنسي .

(71) Vasily Vladimirovich Bartold (1869 – 1930 م) ، مستشرق روسي بارز .

فتوراً في الدراسات ، فلم تكف بغداد عن مزاولة العلوم ، وكان حب العرب للعلوم من القوة ، بحيث لم تمنعهم الحروب والفتن الأهلية وغارات الأجنبي من الاهتمام بها " [72] .

كما يقول أيضاً عن استمرار الدراسات الفلكية حتى القرن الخامس عشر الميلادي: " وقـد استـدعى هولاكـو خــان سنـــة 1259 م / 658 هـ أفضـل علمـــاء العــرب إلى بلاطـــه ، وأقـــام في مراغـــه [73] مرصداً كبيراً نموذجياً ، ولمّا استقر تيمورلنك بسمرقند التي اتخذتها عاصمة لدولته العظمى ، جمع حوله فريقاً من علماء العرب ، ولمّا آل سلطان سمرقند إلى حفيده أولوغ بك الذي عاش في القرن الخامس عشر للميلاد / التاسع الهجري أقبل على علم الفلك بنشاط عظيم ، وأحاط نفسه بعدد غير قليل من علماء المسلمين ، واستطاع بما لديه من الغنى أن يصنع آلات للرصد لم تكن معروفة قبل ذلك التاريخ ، ويعد الكتاب الذي نشره أولغ بك سنة 1437 م / 841 هـ صورة صادقة عن المعارف الفلكية ، التي انتهت إليها المدرسة العربية في أواسط القرن الخامس عشر من الميلاد / التاسع الهجري " [74] .

أما بارتولد فيذهب – تاريخياً - أبعد من لوبون ، حيث يُصرِّح بأن الحضارة الإسلامية بمظاهرها المتعددة ظلت موجودة حتى القرن السابع عشر الميلادي ، وفي ذلك يقول :-

" لا ينبغي أن يُظن أن العالم الإسلامي قد مُنيَ بعد القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي بانحطاط ، وأنه لم يستطع أن يقدم للحضارة شيئاً ، فتركيا لم تكتفِ بشهرتها العسكرية في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، بل صارت استانبول أحد أكبر مراكز الحضارة الإسلامية في العالم الإسلامي ، فلا تفوقها في كثرة المخطوطات الفارسية المحفوظة في مكتباتها إلا لندن وليننجراد في المدن الأوروبية ، ... كما كانت الدولة المغولية في الهند امبراطورية قوية في القرن السابع عشر الميلادي ، والآثار المعمارية التي خلفتها تلك الدولة من ذلك العهد عظيمـــة ، ولـــو قيست بآثار الأوروبيين في

(72) حضارة العرب : ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، مؤسسة هنداوي للتعليم الثقافة ، د . ت ، ط 1 ، ص 474.

(73) تقع مراغة حالياً شمال غرب إيران ، في محافظة شرق أذربيجان . أما مدرسة أو مرصد مراغة فقد أسسه الفلكي نصير الدين الطوسي (حوالي 597 - 672 هـ / 1200 – 1273 م ،.(للمزيد انظر : صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، الوافي بالوفيات ، تحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط ، تزكي مصطفى ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ط 1 ، 1420 هـ – 2000 م ، جـ 1 ، ص ص 147 – 151) .

(74) حضارة العرب : ص ص 474 – 475 .

العهد نفسه ، وكانت ثروتهم تزيد كثيراً عن ثروة فرنسا وهي أغنى دول أوروبا في ذلك العصر ، كل ذلك يدل على أن القول بأن العالم الإسلامي كان في نوم عميق قبل أن يأخذ في النهوض بتأثير أوروبا في القرن التاسع عشر مبالغ فيه كثيراً (75) .

رابعاً : إذا تأملنا البداية التي انطلقت منها العلوم التطبيقية في الحضارة الإسلامية وتحرينا فيها الدقة لوجدنا أنها نبعت لخدمة أهداف وأغراض دينية ، وجاء تطورها من القرآن الكريم نفسه ، فالرياضيات مثلاً بدأ تطورها مع القرآن الكريم ، وذلك فيما ورد في القرآن من الأحكام المفصلة في تقسيم الميراث (76) .

أما علم الفلك (الهيئة) فقد دفعت حاجات دينية متعددة علماء المسلمين إلى البحث فيه بعمق ، مثل الحاجة لمعرفة اتجاه القبلة للصلاة ، والحاجة لرؤية هلال رمضان لبدء الصيام ، فضلاً عن الحاجة لمعرفة مواقيت الصلاة ، وكلها أشياء دفعت المسلمين إلى الاشتغال بهذا العلم والتقدم فيه ، ومثل ذلك يقال على الطب وغيره من العلوم التطبيقية ، فلا يعقل أن يكون الدين الذي هو أساس ومنبع تطور العلوم التطبيقية في الحضارة الإسلامية هو نفسه سبب تدهور وتراجع تلك الحضارة ، لأن العلة الواحدة كما قلنا لا يمكن أن يصدر عنها معلولات متناقضة .

كل تلك الحقائق التاريخية تؤكد المرَّة بعد المرَّة أن الحضارة الإسلامية لم تتوقف أو يتراجع إنتاجها بعد انقضاء القرون الثلاثة الأولى من عمرها بسبب فتوى الغزالي كما يدعون ، وأن التمسك بالدِّين لا يمكن أن يكون بحال من الأحوال سبباً في انهيار الحضارات كما يتصورون ، وأن تلك الأصوات التي تنبعث من الغرب بين الحين والآخر ما هي إلا محاولات لإيهام الشباب المسلم بأن الدين لا يتفق مع الحضارة ، أو أن العلم لا يستند إلى الوحي ، وهدفهم المكشوف هو

---

(75) تاريخ الحضارة الإسلامية: ترجمة حمزة طاهر ، القاهرة ، دار المعارف ، ط 4 ، 1966 م ،ص ص 150 – 152.

(76) جوان فيرنيه : الرياضيات والفلك والبصريات ، بحث بكتاب " تراث الإسلام " ، تصنيف د . حسن نافعة ، كليفورد بوزورث ، ترجمة د . حسين مؤنس ، د . إحسان صدقي العمد ، مراجعة د . فؤاد زكريا ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، 1998م ، ، عدد 234 ، جـ 2 ، ص 173 .

Mat Rofa Bin Ismail (with collaboration of Osman Bakar and Kamel Arifin MOHD Atan) : Algebra in Islamic Mathematics , Encyclopaedia of the History of Science , Technology , and Medicine in Non-Western Cultures , Helaine Selin (Ed.) , Springer , New York , 2008 , Volume 1 , p 113 .

خلق جيل من شباب المسلمين يؤمن بالعلم وحده ، ويكفر بما عداه من ثوابت والعقيدة ، كما أن هدفهم أيضاً تشكيك المسلمين في ماضيهم ، ليفوِّتوا عليهم فرصة صناعة حاضرهم واستشراف مستقبلهم ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .